الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

كلية الأداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

شهادة مشاركة

يتشرف السيد رئيس الملتقى والسيد عميد كلية الآداب واللغات بجامعة محمد بوضياف بالمسيلة بمنح هذه الشهادة

للدكتور(ة): تيس ناصر محمد الحسني - جامعة المسيلة

تقديرا وعرفانا له(ها) على مشاركته(ها) الفعالة ضمن فعاليات الملتقى الوطني "**آليات الإبداع والتجديد في الشعر الشعبي الصوفي الجزائري**" المنعقد يومي 10/09 مارس 2020 بقاعة المحاضرات عبد المجيد علاهم.

بمداخلته(ها) الموسومة بـ: التصوف في الشعر الشعبي لمنطقة أولاد نايل "عبد الرحمان الطاهيري". أنموذجا

رئيس الملتقى

الدكتور
عثمان مقيرش

عميد كلية الآداب واللغات

أ.د عمار بن لقريشي

الملتقى الوطني آليات الإبداع والتجديد في الشعر الشعبي الجزائري

الاسم: ناصر محمد الحسني

اللقب: تيس

الرتبة: أستاذ محاضر أ

الجامعة: جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الهاتف: 0792.23.67.53/ 0672.81.73.79

البريد الإلكتروني: nassermohammedelhassani.tis@univ-msila.dz

عنوان المداخلة: التصوف في الشعر الشعبي لمنطقة أولاد نايل عبد الرحمان الطاهيري أنموذجا

ملخص:

إنّ محاولتنا لدراسة تاريخ الشيخ عبد الرحمان بن الطاهر بصفته شاعرا وأديبا وعالما ومقاوما، تستلزم منّا تقديم تمهيدات تصلح أن تكون مفاتيح لهذه الدراسة، ليقف القارئ الكريم على حقيقة هذه الشخصية فيسهل عليه التصنيف، لذلك ارتأينا أن نقدّم تعاريف للتصوف بصفة عامة وللطريقة الرحمانية بصفة خاصة، وكذلك رواد الطريقة الرحمانية في الجلفة، بالإضافة إلى الشعر الملحون عند الشيخ عبد الرحمن، مع ذكر أوضاع المجتمع الجزائري إبان الاستدمار الفرنسي.

ومن هذا المنطلق نطرح التساؤل الآتي:

كيف استطاع النص الشعري الصوفي أن يجمع بين جمالية اللغة وتمظهرات الفكر الصوفي؟ وهل تجلّى ذلك في شعر عبد الرحمان الطاهيري؟

أوّلا/ تعريف التصوف

إن التصوف في الفكر الإسلامي من الموضوعات الخلافية التي تعددت بشأنها وتباينت حولها التفسيرات والأحكام، وهذا التعدد في الآراء والتباين والأحكام يجعل الأمر جديرا بالبحث والتأمل، خصوصا وأننا نمر بمرحلة كثر فيها الاختلاف، وأصبحت السمة الغالبة بين المسلمين وهي الاتهامات المتبادلة وادعاء كل فريق أنه على حق، وأن غيره على باطل، أو ليس على الأقل على الطريق الصحيح.

من العلماء من يرى أن التصوف هو المدرسة الروحية في الإسلام والتي تهدف إلى التربية الروحية، مؤدية رسالة الهداية وتربية النفس البشرية عملا بقوله صلى الله عليه وسلم :{إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . { في حين يرى آخرون أن التصوف دخيل على الإسلام وأنه وليد البراهمة الهندوسية والرهبنة المسيحية وزهاد البوذية ومزيج من الأفكار اليهودية والأفكار المسيحية واليونانية وبالأخص الأفلاطونية والمحدثة.

وإذا سلمنا بالرأي الأول باعتباره الأقرب إلى ثقافتنا الدينية وموروثنا الشعبي والحضاري، ولزمنا أن نرجع الأمور إلى أصلها وبالتالي يمكننا تقديم تعريفات موجزة عن هذا العلم النفيس –كما يقال – بالرغم من أن كبار المتصوفة و أئمة الصوفية لم يتفقوا هم أيضا على تقديم تعريف موحد له إلا أنها ترجع كلها إلى صدق التوجه إلى الله تعالى.

– من بين التعاريف:

قال معروف الكرخي: التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق[1].

قال أبو سليمان الدارني: التصوف أن تجري على الصوفي أعمال لا يعلمها إلا الحق، وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو[2].

قال سري السقطي: التصوف اسم ثلاث معان وهو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن في علم ينقض عليه ظاهر الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله[3].

وقال أبو الحسن النوري: ليس التصوف رسوما ولاعلوما ولكنها أخلاق[4].

وقال أيضا: الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجات العليا مع الحق فلما تركوا كل ما سوى الله صاروا مالكين ولا مملوكي.

وقال أبو القاسم الجنيد: التصوف أن يختصك الله بالصفاء فمن أصطفي من كل من سوى الله فهو صوفي[5].

وقال أبو بكر الشلبي: التصوف أن يكون الصوفي كما كان قبل أن يكون[6].

وقال أبو حامد الغزالي: التصرف علم مبني على العلم وقطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخليه القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله[7].

وقال الحسن بن منصور: الصوفي وحداني الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحد، وقيل الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح[8].

وهكذا نجد أنفسنا أمام هذه الأقاويل الكثيرة عن التصوف في ذهول وحيرة ، ولكن الحقيقة التي نجنيها من لب هذه التعاريف التي وضعها أرباب التصوف أنها كلها صحيحة ولدت من رحم حياتهم الصوفية

ثانيا/ رواد الطريقة الرحمانية في الجلفة

خلال حياة مؤسس الطريقة الشيخ عبد الرحمان وخلفائه الأوائل انتشرت الرحمانية في وسط القطر الجزائري انتشارا واسعا، حتى أصبحت أشهر الطرق وأكثرها أتباعا في تلك النواحي، وأسس روادها العديد من الزوايا لا يزال بعضها إلى اليوم يواصل رسالة التعليم القرآني والديني والتربية الروحية، وجل السابقين الأولين من الرواد كانوا من أعيان وشيوخ قبائل أولاد نايل، فبعضهم أخذ الطريقة مباشرة من مؤسسها، وآخرون عن شيوخ زوايا طولقة وأولا جلال والهامل[9].

ومن أشهر رواد الرحمانية في قبائل أولاد نائل القايد أحمد بن عمر سليل أولا الضيف (نوائل بوسعادة) و ابنه الأكبر محمد . ومن المشاهير أيضا : الشيخ الشريف بن محمد الأخرس الثاني الذي كان متجردا للعلم والتربية والتعبد ، وجاهد مع الأمير عبد القادر . ومن

المشاهير أيضا : عبد الرحمن بن سليمان ، أبو القاسم بن مشيه الغويني ، وأبو الأرباح بن محفوظ ، ومحمد بن رابح العقوني ، ويوسف بن محمد ، وعبد القادر بن ابراهيم ، وأحمد بن الحمروش وغيرهم كثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم.

أما أشهر الزوايا الرحمانية بالجلفة و نواحيها فنجد: زاوية عين أغلال، زاوية الشيخ عرعار، الزاوية الطاهيرية بمسعد، زاوية سي بولرباح، زاوية محمد بن مرزوق بعين وسارة زاوية الشيخ بولرباح المغربي، زاوية الشيخ عبد الرحمان بن طاهر، زاوية الشيخ عبد الرحمن النعاس، زاوية سيدي عطية الجلالية، زاوية الشيخ السلامي بعين وسارة، زاوية زنينة...إلخ.

وقد أشار الشيخ سي عامر محفوظي (رحمه الله) إمام الجامع الكبير بالجلفة سابقا في كتابة (تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نائل) إلى أكثر الزوايا الرحمانية شهرة وتأثيرا في المنطقة، وعددها ثلاثة عشر.

وللاطلاع على حقيقة هذه الطريقة ودراسة تاريخها ننصح القارئ الكريم بالاطلاع على كتاب (أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوية) للباحث عبد الباقي مفتاح.

ثالثا/ الشعر الملحون عند الشيخ عبد الرحمن

إن الحديث عن الشعر الملحون شيق رغم تشعب مواضيعه وغناها ، و قبل أن يكون هذا الشعر الصورة الحية لجماعة ما ، فإنه ألصق بصاحبه إذا يكتنز فلتات تكون بمثابة المفاتيح الرئيسية التي تكشف عن الشخصية الحقيقية للشاعر أم عن أقرب صورة لهذه الشخصية.

وبالتالي يشارك الشعر في إلقاء أضواء على جوانب مهمة لعصر ما و مجتمع ما قد لا يبوح بها التاريخ ، أو توصلنا بها عن طريق المقارنة مع المعطيات التاريخية إلى استنتاجات دقيقة تغنينا عن التسليم المباشر بالحقائق المعروضة أمامنا دون الغوص و محاولة تقضي مدى مطابقتها للواقع.

هذا الحديث يجبرنا لا محاولة إلى أن نقوم (ولو بشكل موجز) باستعراض الظروف التي انتشر فيها هذا النوع من الشعر في الجزائر ، ولعل مقدمة بن خلدون تعتبر من أهم المصادر التاريخية التي تعرضت للإجابة عن هذا السؤال ، إذا يذهب إلى التأكيد بأنه تطور

لما طرأ على الأدب العربي في الأندلس و الشعر بصفة خاصة والذي يتمثل في بروز الموشحات وظهور التواشيح ثم الأحوال على يد بن قزمان و الأعمى و التطيلي و غيرهما.

وتعتبر الأزجال هي المصدر الأساسي لانتشار الشعر الملحون في المغرب العربي بصفة عامة، والجزائر جزء أساسي له حظ كبير من ذلك الانتشار، خاصة بعد أن تبناه رجال الصوفية الذين حلوه إلى شكل شعبي عميق الجذور في المدائح الدينية و الأذكار التي ساهمت في انتشار على المستوى الشعبي[10].

إن الاستقراء التاريخي يسمح لنا بأن نقول إن انتشار الشعر الملحون يعود إلى عدة عوامل ثقافية ودينية واجتماعية وظروف الاحتلال، ساهمت كلها مجتمعة في بلورة الطابع الراهن للشعر الشعبي في الجزائر وحددت سماته الرئيسية وأغراضه الشعرية و مواضيعه الاجتماعية، إضافة إلى هذا فقد زاد من أهمية الشعر الشعبي في الذاكرة الاجتماعية وسهولة صياغته البعيدة كل البعد عن التكلف والخالية من كل تنسيق كلامي يتطلب معرفة عميقة بقواعد اللغة وعلومها، مما عزز مكانة الشعر الشعبي في الوسط الشعبي وحرر أغراضه ومواضيعه من المدائح الدينية والأذكار الصوفية إلى مختلف القضايا الاجتماعية الأخرى.

ولعل أهم غرض شعري طغى على مجرى الشعر الملحون عبر العصور هو الغرض الديني، إذ احتضن المتصوفة والطرقية فيما بعد هذا الشعر، وصبوا فيه كل تصوراتهم وأحاسيسهم وتجلياتهم وأفكارهم عن الكون والحياة والموت، وكرسوا هذا الشعر للعديد من المدائح التي مازالت العامة ترددها في مختلف أنحاء الوطن في شتى المناسبات<

والملاحظ أن الشعر عامة لا يختلف من حيث الوظيفة التي أخذها على عاتقه عبر الأجيال، سواء كان علميا من نتاج العامة من الشعب على لسانها اليومي، أو فصيحا من نتاج طبقة معينة تعرف بطبقة المثقفين.

وإذا سايرنا الرأي الذي يقول بأن اللغة الفصحى قد أسفرت عن طبقة جديدة في المجتمع يتجه إليها كل ما هو مكتوب، هي ما تسمى كما أشرنا سابقا طبقة المثقفين التي أرادت أن تتميز عن العامة بما اكتسبته من معارف، فإن الشاعر أو الأديب الذي اختار التعبير بالعامية رغم قدرته على التعبير بهما معا، يعبر بهذا الموقف عن تمسكه بالروح

الشعبية وشعوره بالقرب من الطبقات الشعبية أكثر من غيرها رغم ما يميزه عنها من مؤهلات.

هذا الخيار هو الذي أردنا أن نجليه ونبرزه في شخصية الشيخ سيدي عبد الرحمن بصفته شاعرا من طبقة الأدباء المتمكنين، والذي امتاز شعره الملحون بالعمق ودقة المعاني وسهولة فهمه على العوام، وإن دلت هذه الميزات فإنما تدل على عظمة هذه الشخصية ومدى تمكنها وبعد نظرها، وتمسكها الشديد والوطن والقومية، مما أهله لأن يكون مثالا للشخصية الجزائرية المقاومة للاستدمار والظلم[11]

رابعا/ أوضاع المجتمع الجزائري إبان الاستدمار الفرنسي

بدأت الإدارة الفرنسية في الجزائر عسكرية منذ الاحتلال، وتأكدت سنة 1834م حين خضعت الجزائر لتصرفات الجيش الفرنسي المعروف بالجيش الإفريقي والذي مهمته الاحتلال والاغتصاب والإرهاب ومحاربة الروح الجهادية، وأخذ الضرائب العادية والحربية بالقمع والتعسف، و لقد انعكست هاته السياسة على الحالة المعيشية للجزائريين بصفة عامة في جميع المستويات:

- الحالة الاقتصادية:

حدثت في عهد الاستدمار الفرنسي عدة مجاعات وقحوط حادة تركت أثارها السيئة على السكان، ومن أهم هذه الآثار خلفتها انتشار الأوبئة الفتاكة كالكوليرا والتيفيس ...إلخ وأيضا ضياع الثروات المدخرة والاضطرار لبيع العقارات والأراضي تحت الضغوط المختلفة وتراكم الديون بسبب الضرائب العقارية غير المدفوعة والفوائد الربوية لدى البنوك والمرابين واليهود وغيرهم[12].

وتوالت الأزمات الاقتصادية على البلاد والتي انعكست على حالة الأهالي مؤدية إلى المجاعة والفقر والمعاناة، وقد صادفت تلك الأزمات هجرات الأوروبين إلى البلاد بشكل عام حيث كان همهم الوحيد تجريد الأهالي من أراضيهم بمختلف الوسائل واستغلالها، لأن العملية كما قال **ش ريشار**: تعد أولى مصالح الدولة الاستعمارية.

والملاحظ أن استغلال الأراضي من طرف المعمرين قد جعل منها أراضي عقيمة بسبب الإجهاد وسوء الاستغلال، مما أدى إلى هجرة الكثير من ملاك الأراضي حتى أن البعض أصبحوا (خماسين) لدى المستعمرين.

ومما زاد الوضع سوءا ما حدث سنة 1863م من انقلاب فلاحي بمقتضى القانون الإمبراطوري (**السياناتيس كونسليت**)، والذي حطم الملكية القبلية، وأخذ الأراضي بالقوة والقهر مما أدى إلى أزمة اقتصادية حادة بين سنتي 1863_1870م كانت من أحلك السنوات على الأهالي وأعسرها.

وهكذا قضت مجاعة 1876م وما تلاها من الأزمات والسياسات الاستدمارية على عشرات الآلاف من الأسر الجزائرية.

- الحالة الاجتماعية:

كانت الحالة الاجتماعية صورة معبرة عن الحالة الاقتصادية، ولم يكن للاستدمار أي دور خلال هذه الأزمات إلا العمليات الحسابية والإحصاء من خلال رصد الضحايا والخسائر ولقد كانت الأوبئة إلى جانب المجاعات تحصد الآلاف من الأهالي، ولم تحرك السلطات الفرنسية ساكنا، بل زادت الأهالي جرمانا ورعبا، وإمعانا في الاستئصال والإبادة، فقد دمرت بين عامي 1867م و 1869م الكثير من العشائر.

ويمكن القول إنّ السلطات الاستدمارية لم تقم بأي دور إنساني بل تركت الجزائريين يموتون جوعا ومرضا وحرمانا، وهذا ليس بغريب ما دام الاستدمار يسعى إلى إبادتهم ومحوهم من الوجود، لكن والله تعالى خير حافظ وهو أرحم الراحمين، وتستمر الأمة الجزائرية رغم الداء و الأعداء[13].

أضف إلى هذا كله سوء التسيير الإداري المتعفن بالقصد، وسياسة الفرنسة التي تحاول فرض رؤية استعمارية وتفكير مغاير تماما لرؤية وتفكير المجتمع الجزائري، من أجل تحقيق فرنسة الجزائر واستئصال المجتمع من مقوماته الأساسية، خاصة الدين الإسلامي والعربية والقومية و الوطنية.

الخاتمة:

وما نخلص إليه في الأخير بعد قراءتنا للشعر الشعبي الصوفي في منطقة أولاد نايل عموما، والشاعر عبد الرحمان الطاهيري بصفة خاصة أنّ التجربة الشعرية للشاعر الصوفي الطاهيري تعدّ من التجارب المجسّدة للفكر الصوفي داخل نسق لغوي يكاد يتفرّد من حيث تراكيبه ونسيجه الدلالي، فنصوصه تميّزت بالمحافظة على نسق الفكر الصوفي وتجسيده في بنى نصية إبداعية، مع استخدام أيقونات قارة في النص الشعري.

الإحالات:

[1]- عبد الرزاق نوفل: التصوف والطريق إليه، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1975م ص06-20.

[2]- نفسه، ص20.

[3]- عبد الرزاق نوفل: التصوف والطريق إليه، ص20.

[4]- نفسه، ص20.

[5]- نفسه، ص20.

[6]- نفسه، ص20.

[7]- نفسه، ص20.

[8]- ابن عجيبة الحسيني، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار الفكر، ط1، لبنان، دت، ص05.

[9]- عبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، دار الوليد، ط1، الجزائر 2004م، ص243.

[10]- مختار بن مصطفى طاهيري، الشيخ سي عبد الرحمان بن الطاهر طاهيري 1874-1931م حياته ونبذة من آثاره، دار الوسيط، ط1، الجزائر، 2011، ص18.

[11]- مختار بن مصطفى طاهيري، الشيخ سي عبد الرحمان بن الطاهر طاهيري، ص19-20.

[12]- صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر، دار العلوم، ط1، الجزائر، 2002م، ص210.

[13]- صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر، ص213.